أضواء على الوجودية

عندما يريد المهندس أن يقيم عمارة فإنه يتخيل أولا الوضع التصميمى الذى ستكون عليه تلك العمارة . . ارتفاعها ، عدد طوابقها ، أحجام حجراتها ، ألوانها ، نوع زجاجها ، إلى كل ما يتصل بها حتى الأشياء الكمالية فيها ، من بروز ونقوش وغير ذلك ، مما يجعل العمارة قائمة فى ذهنه صورة متكاملة يضعها بعد ذلك على الورق ثم ينقلها تنفيذياً إلى الطبيعة .

هذه الفكرة عن العمارة هى صورتها . . تصميمها للوضع الذى ستصير إليه بعد وجودها ثم إن كينونة الشىء هى وجوده ؛ بينما الفكرة التى أقيم على مثالها هى الصورة أو المثال وبين هذين الأمرين .. الصورة والكينونة تذهب الفلسفة وتجىء .

وقد أجمع كثير من الفلاسفة على أن الصورة تسبق الوجود وأن وجود الشىء دليل على وجود مثالى تصورى له سابق عليه .

واستدل كثير من الفلاسفة من ذلك على وجود الله إذ أن وجود الصورة يقتضى وجود المصور لأنه هو الذى ينشئ الكائن على هذه الصورة التى وضعها .

وغالباً ما يأتى الوجود أقل كمالا من الصورة التى تفقد بعض بهائها فى عملية الإخراج وفى تحويل الفكرة إلى عمل، ولذلك ذهب كثير من المفكرين إلى أن جهاد الإنسان وسعيه يدوران حول تكميل نفسه حتى يصبح مطابقاً للصورة الإنسانية المثالية التى صور عليها الله الإنسان الكامل .

* * *

ولكن الفلسفة الوجودية تقوم على عكس ذلك فهى لا ترى أن هناك صورة مثالية سابقة على الوجود ، ومن ذلك ترى أنها تفقد ميزة المرونة . ذلك أن الفلسفة التى تجعل الوجود قائماً على صورة مثالية ، تجعل للمشاكل حلولا لأن الحل هو الرجوع إلى الأصل ، ومحاولة العودة إلى الصورة المثالية للشىء الكائن إذا حدث تحول أو انحراف عن طريق السير نحو استكمال الكائن .

فالوجودية لا تربط الإنسان بغير شخصه : ذاته . . . وجوده ، لا تربطه بفكرة مثالية سابقة أو تقيم له صورة للإنسان الكامل أو الفاضل يجاهد أن يحققها فى نفسه ، فهى بذلك تنحرف عن طريق الفلسفة المثالية ، وعن طريق الأديان كلها إذ تنهض تلك الأديان على أساس التسامى الدائم بالإنسان

إلى المثالية ... إلى صورة الله .

ولئن كان كيركجارد هو أول من ركز فلسفته حول ذلك الاتجاه ، فقد تلاه فلاسفة آخرون لم يقيموا وزناً كبيراً أو صغيراً على تفاوت بينهم للقيم الإنسانية المثالية التى تقول بوجود مثل كامل سابق على الوجود فلا ارتباط عندهم بين الإنسان من حيث هو كائن فعلا وبين الصورة الأصلية للإنسان المثالى .

ولا ريب أن فصل هذا الارتباط يكسب الإنسان اضطراباً وقلقاً . لأنه لا يربط وجوده إلى أصول ثابتة ولا يلتزم طريقاً مطروقاً كالسيارة التى تنطلق دون أن تسير فى طريق معلوم ولا صلة تربطها بالسيارات الأخرى التى تنطلق فى قافلة الحياة ، إنها قد تتشابك وقد تتصادم وقد يحطم بعضها بعضاً دون أن تفكر فى تعديل سيرها .

فالفلسفة الوجودية هى فلسفة الذات الإنسانية المتفردة دون ارتباط بغيرها من الذوات . . . وهى فى واقع الأمر ليست فلسفة ولكننا لا نجد اسماً فى الواقع يمكن أن يعبر تماماً عنها فنستعير لها كلمة الفلسفة

إذ الفلسفة لابد أن تنتهى إلى نتيجة ولكن الوجودية لا تنتهى إلى شىء فهى لا توقد شمعة ولا تمهد طريقاً ولا تشير

إلى أى كائن آخر سوى الإنسان ذاته .

وليس المعنى الإنسانى الشامل ، وإنما الإنسان كفرد ، إنه هو مشكلة نفسه كما قال كيركجارد الزعيم الأول للوجودية الذى ترجم مشاعره الخاصة وجمع آلام تجاربه وصبها فى بوتقة أسماها الوجودية فهى إذن معاناة ذاتية عاناها كيركجارد .

ولما كان كل إنسان يختلف كثيراً عن سواه فإن الاتجاه الوجودى لفرد ما سيختلف عنه بالقياس إلى فرد آخر ، ولذلك فإنك لا تستطيع أن تسمى مجموعة هذه الاتجاهات فلسفة أو مذهب

والوجودية تجادل عن نفسها فتقول إنها لا تقبل توجيهاً يأتى من خارج الذات ، وهو جدل عقيم وغير منطقى لأن الطبيعة الإنسانية متشابهة فما يصلح به الفرد يصلح للمجموع إلا فى حالات شاذة نادرة قد تحتاج علاجاً خاصاً ولكنها لا تغير القاعدة .

كما أن الفرد لا يمكنه قيادة نفسه قيادة مستقلة تمام الاستقلال عن الآخرين مهما أوتى من إمكانيات ذاتية ذات تجارب قويمة وثقافة ممتازة ورأى حكيم ونظرات سديدة لأن الوجود الإنسانى مترابط بعضه مع بعض ولكن الفلاسفة

الوجوديون يرون أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى يمكنه أن يكيف وجوده ، ويتصرف فى هذا الوجود الذاتى لكل فرد دون ارتباط بأى تصميم جماعى لحقيقة الإنسان كجنس ، وذلك بعكس ما ذهب إليه الفلاسفة الهادفون من أن الإنسان خلق على صورة مثالية غيبية ، هى التى تدعوه إلى الاقتراب منها والأديان تشير إلى أن الله تعالى خلق الإنسان على صورته .

فالوجودية لا تعارض الفلسفة الهادفة فحسب حين تنفى وجود صورة مثالية للإنسان يجب عليه تحقيقها ليقترب من الكمال المطلق ، بل إنها تعارض فى ذلك أيضاً الأديان السماوية وغير السماوية على الإطلاق . لذلك فالفرد الوجودى غير مكلف بالأخذ بتقليد سابق أو التمسك بعرف متبع أو النزول عند توجيهات سالفة لأنه مقطوع الصلة بكل ذلك ، وقد بدأت دنياه المستقلة المتفردة داخل قوقعته الذاتية منذ أحست هذه الذات بوجودها الأرضى فقط ولا شىء غير هذا ، وعليه وحده أن يختار وفقاً لما يرى حلا لمشاكله وأن يرسم طرق السير فى مسالكه.

وهذا الاختيار الذاتى هو الصورة التى يحققها لنفسه ، فالوجود أولا ثم من هذا الوجود تنبثق الصورة التى يجب أن يصنع حياته عليها .

* * *

ويجب أن نذكر دائماً أن الوجودى ليست لديه تعاليم وجودية لتحقيقها، بل يحقق وجوده الخاص طبقاً لاتجاهاته الذاتية ، ومن ثم فالوجودى فى قلق دائم وحيرة لا تنتهى لأنه هو الوحيد المسئول عما يؤول إليه أمره ولا توجد أية نظم أو حقائق مشتركة يلتقى عندها الوجوديون ليكون لهم منها إيمان بهدف ما ، أو فكرة ما ، أو عمل ما ، لا توجد حقيقة ثابتة على الإطلاق أكثر من أنك موجود فكل وجودى يدرك أنه موجود بلا رابطة بغير ذاته ، وهذا هى الحقيقة المستوحدة التى ليس بعدها فى الوجودية حقيقة ، وعليه تبعاً لذلك أن يكون فيلسوف نفسه ، يصنع لها مذهبها وسلوكها ، فإذا رأيت خمسة وجوديين فثمة خمسة فلاسفة وإن رأيت عشرة منهم كان لكل منهم فلسفته وإنجيله وربه ولو صار سكان الكرة الأرضية وجوديين فثمة أنبياء وفلاسفة بعددهم أجمعين لا يلتقى نبى مع نبى ولا تتشابه فلسفة مع أخرى إلا أن يكون الأمر مصادفة نادرة ولن يجدوا فى هذا الاختلاف ضيراً أو حرجاً على الإطلاق .

* * *

ويبدو أن الفرد الوجودى هو لا وجودى بالنسبة للحياة ذاتها ، ذلك أنه خارج على نظمها ومقدساتها فهو ليس منها ،

وقد يكون حرباً عليها ، فهو لا يبالى مثلها ولا يهمه مصيرها فهو فى حالة عدم معنوى ، أى لا وجودى .

ومع ذلك فإننى أجد هناك بعض اتجاهات لهيدجر وسارتر يعتبران فيها الوجود الفردى المستقل على صلة ما بالوجود العام ولكن ليس معنى ذلك ارتباط الإنسان بالكون ارتباط الجزء بالكل وإنما يمكن أن يشبه ذلك بطائر انفلت من سربه فهو يرى السرب أحياناً فى طيرانه الحر المنفرد ولكنه لا يعود إليه ولا يربط مصيره بمصيره .

فأغلب الفلاسفة الوجوديين يعتبرون ذلك الطائر الوجودى له فلكه الخاص الذى يلف فيه ويدور ، إن شاء حط هنا وإن شاء عشش هناك ، وإن شاء حلق وإن شاء هبط ، بل إن شاء نتف ريشه وراح يئن فى حرية تامة ، دون أن يمد جناحيه أو يرنو ببصره إلى السرب الآمن المنطلق ينشد معونته أو اللحاق به.

بل إنه قد يحتقر ذلك السرب المتجمع الذى لا يقوى الطائر فيه على الانفلات من السرب فهو أسير المجموع ، إنه ضعيف جبان يستمد قوته وحياته من سواه .

وهذه الحالة يهذبها آخرون فيقولون إن للطائر الوجودى أن يحقق انفصاله عن السرب ثم يسير فى نفس اتجاه الريح

غير مرتبط بهدف السرب وإنما يختار هو هدفاً يرضيه فهو دائماً فى حال هذا الانفصال الوجودى فى قلق ومن شأن هذا القلق أن يجعله متحفزاً يقظاً معتمداً فقط على جناحيه هو.

* * *

فهذا الطائر المنفرد المحصور فى ذاته يصبح قلقاً من أجل مصيره فهو مجذوب إلى ذلك المستقبل الغامض الذى اختار بمحض الإرادة الذاتية أن يطير صوبه ولكنه لا يعرف أين ومتى وكيف سيجده، فهدفه الوجودى يسبقه دائماً وهو يطير نحوه . نحو فكرة ذاتية يسير خلفها دائماً أبداً مطيعاً مخلصاً ، ويمكن التعبير عنها بأن أهواء النفس تسبق صاحبها ، ووجوده الذاتى يتابعها لتحقيق أهدافها ، مهما كانت هذه الأهداف المعلقة أمام عينيه على بعد منه كلما اقترب منها ابتعدت فتابع صوبها المسير ولن يلتقى بها أبداً ولن يعدل عنها .

وقد يكون هذا السباق الأبدى متجهاً إلى أعلا إلى إيجابيات الحياة ومثالياتها ، ولكن الوجودى لا يحفل بقيمتها على هذا الاعتبار ولا يشده إليها أنها مثالية وإنما لأن ذاته الوجودية تنزع إليها ، فهى وجوده الذى عليه أن يتابعه بغير جدال .

* * *

ومتى كان الأمر كذلك فإن هذا الوجودى قد يحقق أموراً مثالية كالطائر الذى يجد نفسه يحط فوق بستان بينما آخر يحط فوق جيفة وكلاهما لا يبالى بما حط عليه .

وقد ينتهى الأمر بهذا الوجودى الذى تشده المثالية الذاتية إلى الروحانية ؛ إلى لون من ألوان التصوف . . إلى الله دون رغبة فى ثوابه ولا ابتغاء رضوانه ولا طلباً للسعادة فى عالم آخر ولا حباً فى الله .

على أن هذا الأمر الذى قد يحدث بمحض المصادفة والذى يندر جداً أن يحدث طالما كانت النفس هى التى تريد وتختار لا يمكن اعتباره من محاسن الوجودية لأنها لا تعنى به ولا تستهدفه ، فإذا ألقى فى عرض الطريق بكتاب نافع فالتقطه بعض المارة فانتفع به فإن الذى ألقى الكتاب تخلصاً منه لا يمكن أن يسمى واعظاً أو مرشداً فالوجودى لا ينشد الفضيلة لأنها فضيلة ، إنه منطلق فحسب لأن ذاته تدفعه ، فهو فى اتجاه دائم إلى ما يمكن أن يكون بالنسبة للكون العام لا شىء ، أى العدم : فالوجوديون يمكن أن يسموا بالعدميين لو سميت الأمور بنتائجها

* * *

والوجوديون يسمون الانطلاق المتحرر مع طبيعة النفس عملية خلق ، لأنها تعطى الإنسان الحق فى خلق إرادته واحتمال مسئولية ما يخلق ويختار ، وهذه عندهم هى عين الحرية . وهم يرون أن الحرية بهذا المعنى الذى لا يربطه شىء ولا يوجهه هى غاية الوجود الإنسانى ، فإذا تنازل عن هذه الحرية فقد تخلى عن وجوده كإنسان ، وأهدر حقوق ذاته ، غير أن بعض الوجوديين يجعلون هذه الحرية الذاتية متصلة بخيط ما ، بالوجود المطلق ، ولكنه اتصال اختيارى محض قد تقطعه أقل ريح عابر ، إن هذا الخيط مجرد لافتة مكتوب عليها أنه يوجد هنا عضو من الأسرة الإنسانية ثم لا شىء غير هذا، كالتاجر الذى يضع على دكانه لافتة بأنه يمارس التجارة فى بعض السلع ، ولكنه لا يرتبط بنظام البيع العام ولا يحفل بتعاليم مجمع التجار ولا الأساليب المتبعة فى البيع والشراء .

* * *

بل إنهم ليسمون اتصال الوجود الفردى بالوجود العام مشكلة ، بينما يعتبره العرف والمنطق والنظام العام بديهية ونظاماً : فالوجودى يخشى من الاعتراف بالوجود العام أن يضطره ذلك إلى أن يربط نفسه بالتزامات ما ، فيخضع ذاته للمعوقات

التى تنهض فى طريق حريته، إذ لا قيمة على الإطلاق للاعتراف بحقوق جماعة وأنت لا ترى نفسك ملزماً بالأخذ بهذه الحقوق ، إن الوجودى لا يعترف بالوجود العام إلا كما يعترف راكب القطار بمجموعة الركاب الآخرين ، إنه واحد منهم حرّ فى أن لا يتابعهم بل قد يدع القطار ويقفز من النافذة أثناء سيره بل ربما وجد لنفسه الحق فى أن يحطم الجزء الذى يحتله أو يفك أحد مساميره .

فالوجوديون لا يقيمون وزناً للقيم التى تربط الأفراد بالمجتمع ، ولا يحفلون بما يوحى به العقل والنظام ما لم يكن ذلك فقط متفقاً مع أهوائهم مصادفة إنما العبرة عند الوجودى الأصيل بالتجربة الشخصية ، والمعاناة الذاتية ، فهو لا يعترف بالنار لمجرد أنه يشاهدها أو لأن الناس أسموها كذلك وخافوها بل لا بد له من أن يحترق بها كى يدرك ذلك ولا يعترف بحلاوة شىء إلا إذا تذوقه .

* * *

من هنا تنشأ فكرة اللادينية ، إذ الوجودى لا يعترف بشىء غير مرئى وغير محسوس . غير واضح فى نفسه لم يجد فيه إبرة تخزه فى صدره ، وبما أن القواعد والتقاليد والنظم والأديان

هى مجرد أفكار مثالية ، وتشريعات وتوجيهات لم يصنعها الوجودى ، ولم يساهم فى وضعها فهو لا يعترف بها والفكرة بصفة عامة لا وجود لها . إذ الوجود لا يكون إلا لما هو كائن بالفعل .

والوجودى لا يلتفت إلى الوراء لينظر ما خلفه السابقون ، ولا يربط نفسه بأفكارهم ، إنما يبدأ وجوده يوم أحس هذا الوجود . ولا حرج أن يصل هو إلى بعض ما وصلوا إليه بتجربته الخاصة بل قد يصل إلى الله دون أن يرشده أحد إليه أو يذكره به ولا فخر فى ذلك إلا للتجربة الذاتية الحية .

وهذا الاتجاه يفتح أبواباً عدة إلى الضلال ، ذلك أن كل إنسان مهما كانت نزعته الوجودية وإحساسه بهذه النزعة وتكريس إرادته مع قوة الدفع الذاتى ، فإن ذلك كله إذا حشر فى تجربة ذاتية فردية دون مقاييس سابقة ستصل به إلى نتائج لا يطمئن إلى قيمتها الحقيقية من الحق أو الباطل ما دام لايوجد الميزان الذى توزن به .

وعلى هذا الأساس فإن التجربة الواحدة مع مجموعة من الوجوديين ستكون نتائجها مختلفة وينتهى الأمر إلى الفوضى التى لا رابط لها والاضطراب الذى لا يعصم منه شىء .

* * *

ومهما يكن من أمر فإن الوجودى غير صادق فى ادعائه إنه هو خالق إرادته وصانع مشيئته ذلك أن اتجاهاته الذاتية التى تملى عليه رغباتها ، ويجند لها إرادته . . . هذه الاتجاهات الوجودية ليست من صنعه الخاص وإنما هى تفاعلات غير محسوسة للبيئة والظروف والحالة العامة التى وجد فيها والتى تطبعه بطابعها فهو حين يزعم أنه يتصرف بتمام حريته يكون مخدوعاً عن الحقيقة التى كونت هذه الاتجاهات ؛ فهو ليس إذن حراً فى تجربته التى هيأته لها الأقدار منذ ولد بل قبل أن يولد وقبل أن يستطيع أن يزعم أنه وجودى ، ولو كانت هذه الظروف قد تغيرت فى البيئة الاجتماعية أو العائلية قبل أن يولد لتغيرت تبعاً لذلك الدوافع التى يزعم أنه خالقها ، فالإنسان المربوط بحبل طوله ألف ياردة قد يتحرك مسافة ما دون أن يحس القيد فيظن أنه حر إلى غير حد ، ولن يستطيع الوجودى مهما جاهد أن يتحرر كلية من الوراثة ومن أثر البيئة التى نشأ وعاش فيها قبل أن يمارس النزعة الوجودية ، ونحن حين نذكر ذلك نضع فى الحسبان فلسفة سارتر وهى أسهل الفلسفات الوجودية التى تجعل للوجود الذاتى رباطاً ما بالوجود العام ، الأمر الذى تنكره كثير من الفلسفات الأخرى الوجودية ، وإن كانت الفلسفات

الوجودية تتشابه فى المحاور الأساسية التى تدور عليها والتى تحرر الفرد تحريراً كاملا من كل قيد،ومن هنا تنشأ عدة اختلافات واتجاهات أكثر من الاختلافات الموجودة بين الأديان المختلفة والمذاهب المتفرعة عنها ، بل ربما كان هناك من التفاوت بين اثنين من الوجوديين أكثر مما هو بين مؤمن بالله متصوف فى إيمانه وبين آخر يعبد الأوثان ، فبينما نجد وجوديًّا يعلن أنه بتجربته الوجودية اهتدى فى حرية تامة إلى اكتشاف الله والإيمان به إذا بآخر تهديه نفس التجربة إلى الإلحاد ولا يعتقد أن أى تجربة قد تقود الإنسان إلى الله.

وسارتر يعلن هذا ويقول إنه لايوجد لدى الله أى حل لأى مشكلة من مشاكل الوجود لأن الله غير موجود ولأن الحلول الدينية للمشاكل تحد من الحرية الوجودية ، لأن الوجودى لم يختر هذا الحل وإنما فرض عليه فرضاً.

فالدين عنده خرافة لأنه نسيج من الاتجاهات العقلية أو الغيبية يجب أن تؤمن بها ولو لم تحسها فى نفسك ، وليس معنى هذا أن الوجودية تسقط عالم الفكر من حسابها وإنما لها فى ذلك منطقها الخاص فبينما نجد الفلاسفة يجعلون الفكرة سابقة على الوجود إذا بالوجودى يجعل ذاته قائمة أولا ومنها بعد ذلك تنبثق

الاتجاهات الفكرية ... أى يخلق الوجودى الفكرة التى يصنع بها حياته ... مثله فى ذلك كمثل عابد الوثن الذى يصنع الوثن أولا بيديه ثم يخر له ساجداً فالوجودى ليس فى معزل عن عالم الفكر بل إن أفكاره ذاتية بحتة ، وعلى أساسها يعالج صلته بالناس وهو يرى أن الأفكار الخارجية فيها إعدام للذات أو اتجاه إلى العدم لأنها ليست منبثقة من وجود ذاتى مستقل ، على أن هذا قد يكون غير منطقى وغير واضح ولكن ذلك هو شأن الوجودية طالما أن محورها الرئيسى هو الذات الفردية فالوجود الفردى يختلف عند إنسان عنه عند الآخر ولهذا تختلف الاتجاهات الفكرية وربما كان ذلك هو السبب فى عدم وجود تعليمات أو نظم يتواصى بها الوجوديون بل هى اتجاهات فكرية فردية لا تصلح أساساً لحياة إنسانية كريمة وهى تنافى كل المقومات الضرورية لإقامة مجتمع سليم متكافل متعاون .

الوجودية . . . والعقيدة الدينية

ليست هذه كلمة رجعية يراد بها كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان شد العجلة إلى الوراء ومنعها من التقدم إلى الأمام وليست محاولة لسد المنافذ أمام ضوء جديد ينير بعض الطريق ولكن من حق الإسلام كدين أصيل فى هذه المنطقة من العالم أن يتحقق من شخصية الأفكار الواردة عليه « كالديدبان » الذى يفحص أوراق المارة فإما أن يدعهم يمرون إلى داخل الحدود أو يردهم إذا كانوا مصدر خطر وليس هذا حجراً وإنما هو وقاية فمن حق الإسلام إذن أن يكشف عما فى هذه الواردات من حق أو زيف حتى لا يشغل أهله بأمور إما أن تكون حقيقة قديمة جاءتهم فى ثوب غريب وفى هذه الحال قد يكون من الأصوب الرجوع إلى الأصل والأخذ عنه مباشرة وإما أن تكون كما يقول أديب كبير مصرى من أعراض « مغص عقلى » .

* * *

ومن هذا التشبيه نتصور أن هناك أمراضاً قد تصاب

بها الأفكار عقب تخمة فكرية غير متجانسة تحشر حشراً في العقول فلا يكون لها مفر من أن ترسلها على صورة ما قد يحدث تماماً للمعدة حين تحشر فيها ألوان شتى من الطعام بلا تجانس ولا حساب .

فأين الوجودية من هذا التشبيه ؟

وهل هي فلسفة إيجابية وغذاء فكري ؟

وأين هذه الوجودية من الإسلام وأين هو منها ؟

إن دعاة الوجودية لم يصلوا بعد إلى تحديد ثابت لأهدافها وربما كان ذلك راجعاً إلى طبيعتها فهي حالة انبثاقية من داخل الإنسان تهدف إلى إجراء تنفيذي لما يعتمل باطنياً في الذات فهي دعوة للإنسان إلى تحقيق وجوده الذاتي أي يعيش طبقاً للدوافع النفسية التي تدفعه من الباطن كما يدفع البخار القاطرة فيحقق بذلك وجوده الكوني .

ومعنى هذا أن الوجودية على هذه الصورة تحاصر الإنسان داخل نفسه في قوقعة مغلقة باتجاهاته الذاتية البحتة .

* * *

وهذه الدعوة قد تهرب إليها بعض النفوس وتجد فيها لوناً من ألوان العزاء والتعويض السلبي ولو مؤقتاً عقب الكوارث

فينطوى الإنسان على نفسه كافراً بالقيم العامة والتقاليد .

* * *

وإذا كان من حق كل إنسان أن يحقق وجوده فهل الإمكانيات الكونية تسير فى خطوط متوازية بالنسبة لرغبات كل فرد فى تحقيق وجوده بلا صدام مع وجودية الآخرين ؟ أم أن التفكير الوجودى قد يدعو إنساناً إلى الاتجاه يميناً بينما الدافع الوجودى لإنسان آخر قد يدفعه يساراً فيكون صدام فى عرض الطريق وأن ذلك قد يخل بالأمن والفضيلة والنظام ؟

وهل ترى أن دعاة هذا المذهب قد فكروا لنا فى علاج لهذا الصدام الذى يبدو واقعاً لا محالة عند النظرة إلى الفكرة الوجودية ورغبة كل إنسان فى تحقيق ما توحى به ذاته ؟ أم أنهم يتركون السيارات وعربات النقل والدواب والناس ويقولون لهم هذا هو الطريق فسيروا كما تشاءون ؟ ؟

* * *

وهل يمكن أن نقول إن الوجودية هى أن يصنع الفرد لنفسه ديناً ويحقق فرديته من حيث هو إنسان موجود فى هذه الدنيا . ديناً فرديًّا لا علاقة له بالآخرين ؟

* * *

إن الوجودية كلمة مرنة يمكن أن تتسع لأفكار كثيرة بينما أستطيع فى وضوح أن أقول إن الإسلام دين يحقق الوجودية المثالية .

ذلك أنه إذا كانت الوجودية هى تحقيق الدوافع الكامنة فإن الإسلام يصنع أولا هذه الدوافع النفسية وينميها ويرعاها فى نظام تكافلى كامل يحقق خير وجودية للفرد مع الوجودية الشاملة للمجموع فإذا كان دعاة الوجودية يعطونك مقعداً وثيراً ويقولون لك ضع هذا المقعد حيث شئت فى مركبة الحياة فإن الإسلام يصنع لك هذا المقعد ويعطيك إياه ويحدد لك مكانه من مركبة الحياة حتى لا تزاحم أحداً ولا يزاحمك أحد ولا تثير المتاعب والمشاكل فتسير المركبة فى اطمئنان وسلام .

* * *

الإسلام يحدد للإنسان معالم وجوده مع نفسه ومع الناس ومع وطنه

فوجوديته من حيث هو فرد تلزمه أن يكون فرداً مثالياً متحلياً بالفضائل .

ووجوديته من حيث هو رب أسرة أو عضو فيها تحدد له واجباته العائلية التى لا يتحقق وجوده العائلى إلا بها ، ووجوديته

من حيث هو مواطن تفرض عليه تبعات فى نطاق الوجودية الوطنية، ووجوديته كإنسان تلزمه نحو البشرية بالتزامات نحو الوجود الإنسانى السليم .

ولكن السذج الذين آمنوا بالوجودية كانوا غير مسلحين بعقيدة دينية تحميهم من عواصف هذه الفتنة العمياء التى تبيح لهم الشهوات وتخلع عليها أسماء رنانة ، بل وترفع من قدرهم حين توهم هؤلاء المخدوعين أنهم أصحاب دعوة فكرية وفلسفة جديدة ، وانتفش ريش هذه الدعوة الجديدة حين تزعم أمرها هرقل ضخم من أباطرة السحر والبيان فتولى زمامها ، وراح « سارتر » ينفخ فى مزمارها ويكرس أسلوبه وحياته وقصصه للدعاية لها ، وساعدته الحالة النفسية التى انتهت إليها بلاده ، التى ركعت تحت قدمى « هتلر » على نفخ البالون الوجودى الأجوف ، وراح من حوله مهرجون كبار يسوقون فى سبيل شرح الوجودية حشوداً ضخمة من الألفاظ التى تؤدى بتلاعب ماهر عكس معانيها . . وأخذت القصص الحادة التى تستهوى شباب ما بعد الكارثة تغذى أعصابه بهذا الوقود النارى وهى تدعوه إلى التنفيس عن رغباته المكبوتة والبحث عن السلوان حيث كان تحت اسم مقدس بين التهليل والاحتفال بأنه بذلك يؤكد ذاته ويمارس وجوده .

ولقد وصف الوجودية الفليسوف « جان كانابا » فى كتابه المعروف باسم الوجودية ليست فلسفة إنسانية فقال « إن الوجودية رائعة إذا شوهدت عن بعد غير أنها تبدو على حقيقتها حين نقترب منها فنكتشف أنها ليست إلا بناء من ورق » .

* * *

وعندما تلقى الشباب المتعب الباحث عن اللذة هذه الدعوة وهو غير مسلح بعقيدة دينية راحت خفافيش الدعوة الجديدة تحلق فى أجواء لا نسور فيها وأخذت الجموع تحج إلى كعبة السرور والأنس وتمارس ألواناً من شذوذ الملوك فإذا ما سئل أحدهم عن ذلك أجاب بأنه وجودى .

وراح ذلك الوجودى يغشى المجتمعات ويندس فى كل وسط مبشراً بدعوته وقد وجد الأمر فى بعض الأحيان سهلا لميل النفوس إلى الجديد ولأنه يدعوهم إلى التحلل من قيود تحول دون ممارسة الأهواء ، وهو يزعم أن الوجودية فوق الأديان جميعاً حتى يكسب لها أنصاراً من كل دين — فالمسلم والمسيحى واليهودى الجميع يجدون الترحيب فى مجال الدعوة الإنسانية الجديدة .

فهى — إنسانية لأنها لا تقاوم نفسها . . وكل إنسان ميسر

لما وجد من أجله . فليطع الهاتف الباطنى حين يدعوه — إلى أى شىء . هذا قولهم بأفواههم .

وللوجوديين أسلوب عجيب فى المغالطة — إذ الهدف هو استعمال الألفاظ بلباقة حكيمة لكسب الأنصار ، فهم يدّعون أحياناً أن هناك وجودية مؤمنة ويؤيدون ذلك بأن « كيركجارد » نبى الوجودية الأول الذى دعا إليها من أكثر من مائة وخمسين عاماً كان مؤمناً ، ولا يقتضى الإيمان فى كل الأحوال التصديق بوجود إله خالق لهذا الكون . . بل إن المؤمن الوجودى قد يؤمن بنفسه ويكفر بالله . . لأن الإنسان موجود تراه وتسمعه وتتحدث إليه وأما الله فغير موجود لأننا لا نراه ولا نسمعه .

ولذلك يلزم الإيمان بالموجود أى بالإنسان والكفر بغير الموجود أى بالله .

فهذا الإيمان الوجودى هو إيمان المرء بنفسه .

* * *

فأنت ترى أن هذا لون عجيب من التلاعب بمرونة الألفاظ حتى تتمكن الوجودية من أن تكسب أنصاراً من كل سبيل يسيرون وراء طبلها ، وحتى يتسع المجال لها بهذه الأساليب

الملتوية كى تتسلل فى كل جماعة وكل هيئة وكل دين وهى تحمل لافتات ترضى ميول كل طائفة حتى يأنسوا إليها كما يقتحم الجاسوس حصون أعدائه بزى خداع لينسفها من الداخل .

والوجودى قد تصطدم رغباته بالمجتمع ونظمه وتقاليده وعاداته . . . لا بأس . . ولا حرج عليه فى ذلك على الإطلاق – إنه لن يبالى . . . سيهز كتفيه ويمضى فى سبيله . . وهو ينظر إلى الدين والمجتمع والناس وكل ما اصطلح القوم على احترامه وتقديسه إذا عارض رغباته نظرة اللامبالاة .

شعاره . دع هوى النفس ينطلق إلى غايته – ويمتد طولا وعرضاً بقدر ما تستطيع قواك – إنك حينذاك تملك أن تصنع أشياء كثيرة – وأن تنشئ أحداثاً ضخمة – وأن تؤثر فى كل شىء – وأن تجنى ثمار كل شىء .

هذا هو وجودك فحققه .

* * *

المجتمع عند الوجودى خرافة .

ونحن الذين خلقنا هذه الخرافة . فالإنسان وجد فرداً . . وهو لن يمد يده إلى سواه إلا إذا أحس ضعفاً . فهو يبتغى

عند المجتمع حينذاك مساندة .

المجتمع وهم يسند الضعيف الذى لا قدرة له على تأكيد ذاته — والاندماج فى المجتمع يشل شخصيتك وإن ذلك لحماقة كبرى . فلا تجعل هذه الخرافة تقف فى طريقك — ولا تلجم حريتك باسم هذا الشىء الذى لا وجود له .

إنك لست مديناً للمجتمع بشىء — فليس عليك أن ترد هذا الدين بأن تقمع من رغباتك أو تحد من سلطانها لحماية الآخرين — فكل إنسان يجب أن يعيش حياته كما يهوى .

هذا هو منطق القوم .

* * *

فإذا ما نفضت من المجتمع اليدين . . فلا تقم وزناً لما هو أشد حمقاً من المجتمع . . وهو الدين . . إياك ومعانى الحرام والحلال — فلا تجعل من نفسك عبداً لهذه الخرافة الأخرى — فالله غير موجود . . وإنما هو كلمة ابتكرها الإنسان ، إن الإنسان هو الذى خلق الله — وأقام فى ذهنه هذا الخيال الضخم ليخدر نفسه به إذا أصابه مكروه . . أو ضل فى الحياة سعيه . فيزعم لنفسه أن هناك أجراً فى الآخرة مرصوداً — فيه عوض وجزاء عما فاته فى الدنيا .

* * *

الوجودى يسخر من ذلك كله — فهو ليس فى حاجة إلى عزاء عما يفوته فى دنياه . فليس بعد هذه الدنيا شىء — وسيمارس فيها حياته كما يحلو له .

* * *

والفلاسفة الوجوديون لا يلتقون عند نقطة ابتداء فى شرح مذهبهم أو تحليله . ولا ينتهون عند غاية سواء . . فأنت تراهم لا يدينون بشىء ولا تجمعهم طريق — لأن لب هذه الدعوة هى الذات وحريتها الفردية — ولكل أن يمارسها وفق رغباته .

إن عمر الإنسان محدود على الأرض ، وأيامه فيها معدودة فعليه أن ينتهز فرصته ليعيش أيامه لنفسه فحسب ، مستمداً أسلوب حياته من أهوائه غير مقيد بشىء آخر غير إرادته . ضارباً بكل ما عدا ذلك عرض الأفق . فقد ولد مصادفة والموت سيطوى إن آجلا أو عاجلا سجله ، فعليه أن يعتصر من الدنيا لذائذها . . وأن يكرس عزماته لتحقيق هواه . وليكن بعده الطوفان . . ولتذهب الدنيا بمن فيها وما فيها إلى الجحيم . فما يهمه من ذلك شىء .

الوجودى صاحب نفسه فحسب . وصديق هواه أولا وأخيراً . لا تقف فى وجه رغباتك . . ولا تلجم شهواتك بقيد ما . .

إن مثلُك إن فعلت ذلك كمثل من يعترض مجرى السيل ، أو يلقى الأحجار فى مجرى النهر . دع السيل حرًّا يتدفق إلى غايته ــ وهو لا يزعم ذلك فى سذاجة . إنما هناك فلسفة تشرح دقائق هذه التعاليم وتدافع عنها .

* * *

حينما نسلط بعض أضواء الإسلام على الوجودية إنما نعنى بذلك العقيدة . . فالإسلام رمز للعقائد السماوية وبينما يعمل الوجودى على تفتيت المجتمع . . ونسف تجمعاته ليذهب كل فرد فى طريقه ، نرى أن العقيدة الدينية تعمل على تجميع القوى الفردية . . ليتكون من النقط المتفرقة نهراً . . ومن اللبنات الموزعة بناء . . فالعقيدة تجعل الفرد يستمد قوته من تلك القوة الكبرى التى لا ينضب معينها ولا تضعف .

وبينما الوجودى حين يسير فى حياته فرداً يصبح كالريشة قد تطويه أى ريح . إذا بالعقيدة تجعله مع المجموع قادراً على مواجهة الحياة والأشياء بتلك القوة الجماعية . فلا يحس أنه ضائع ولا يشعر أنه عاجز ، ولا يقيس عمره بأيامه القليلة على الأرض ، وإنما يزنها بميزان الإنسانية الكاملة ، وعمرها الذى يمتد من الأزل إلى الأبد .

* * *

تلك هي وظيفة العقيدة الدينية — وذلك هو أثرها فى النفس والحياة — إن الوجودى يريد أن يكون قويًّا بنفسه .. وهو يغمض عينيه عما سواه . وذاك وضع غير منطقى مع الحياة . . إن مَثَله مثلُ الجندى الخارج من الصف . . يزعم أنه قادر على مواجهة العدو وحده . . إنه يسخر من العرق والعناء الذى تبذله الجموع . . إنه مريض بوهم كبير ويستنكر كل علاج قد يشفيه من هذا الوهم . . .

إنه يظن أنه سيعيش سعيداً . . بينما السعادة الصادقة لن تتيسر بغير العقيدة لأن السعادة هى الخير . . وكل ما نالته البشرية من خير إنما كان بسر العقيدة . . فالعقائد هى التى جمعت الناس كالبنيان المرصوص فى وجه كل شر يراد بهم . . ولو كان الأمر إلى كل فرد يعالج أموره على حدة . . لقضى أيسر الشر على الناس أجمعين .

* * *

وبينما الوجودى يضحى بكل صالح للجماعة فى سبيل ما يرى فيه الخير لنفسه . . إذا بالعقيدة تقدس التضحية بالعمر الفانى فى سبيل الحياة الكبرى التى لا تفنى . . والفرد حين يسلم زمامَه لعقيدته سيحس تجاوباً مريحاً مسعداً لأنه ينفذ نظاماً

لا يستقيم أمر الخير على الأرض إلا به .

فالعقيدة هى وحدها التى تمنح الناس المعونة وتمدهم بالمساندة . . وهى التى تحقق للفرد حريته الصادقة . . لأنها ستنقذه من عبودية شهواته . . فالوجودى حين يعلن تحت اسم زائف أنه يريد أن يكون حرًّا من كل قيد حتى يحقق رغباته . . إنما يعطى بذلك إقراراً أنه عبد لهذه الرغبات .

* * *

إن المرء فى ظل العقيدة تصغر فى عينه قوى المال والجاه وقوى المركز والسلطان وقوى الحديد والنار . . فهو يستخلص حريته وينأى بها عن كل المؤثرات بينما الوجودى سينحنى لهذه القوى التى يلتمس عندها تحقيق مرغوبه . . وهو لن يجاهد فى سبيل شىء من المثاليات الصادقة . . فهو بالإضافة إلى عبوديته لذاته سيكون عبئاً على الآخرين لأنه يعتزلهم فلا يشارك فيما يدفع ضرا عامًّا أو يجلب خيراً .

الوجودى إنسان لا قدرة له على الصبر والكفاح . . وهو دائماً مستطار اللب هلوعاً من فكرة الموت . . بينما المؤمن القوى العقيدة يحرص على الموت كى توهب له الحياة .

* * *

إنها لحماقة كبرى أن يتخلى الوجودى عن الفائدة العظمى التى تحققها العقيدة فى سبيل الاستمتاع الوقتى بالحلول الذاتية لمشاكله . . . إنه لن يجد الحل الدائم للمشاكل إلا مع العقيدة التى تسلح تلك الحلول بالقوة التى تكفل لها البقاء .

* * *

وبعض الذين يخدعون ببريق الدعوة الوجودية معذورون .. ذلك لأنهم لم يتذوقوا عقيدة دينية ولم يدرسوها دراسة عميقة تكشف عن جواهرها . . وإذا كان البعض يرى حجته فى الضعف الذى حاق بالأمم الإسلامية وبالمسلمين فى أكثر أحوالهم . فليس ذلك راجعاً إلى ضعف إمكانيات العقيدة فى رسم منهاج متكامل للحياة . وإنما يرجع لابتعاد هؤلاء المسلمين عن جوهر عقيدتهم بحيث أصبح انتماؤهم إليها انتماء لفظيًّا بعيداً عن الروح التطبيقى لمقتضيات هذه العقيدة .

* * *

وأريد أن أؤكد ما أشرت إليه مراراً إلى أننى حين أذكر العقيدة الإسلامية فى معرض مناقشة الوجودية . . إنما أعنى كل عقيدة دينية . ذلك أن العقيدة الإسلامية هى عقيدة إنسانية تدعو إلى وحدة متماسكة . وهى منارة تريد أن ترسل

ضوءها إلى كل البقاع . ليهتدى بها كل السائرين بلا تمييز .

إن الوجودى باتجاهاته الفردية ينسف البناء الذى جاهدت الإنسانية على مدار عمرها الطويل فى إقامته . وهو يقطع كل حبل اتفق الناس على الاستمساك به فى مسارب الحياة . ولذلك فإن كل جهد يبذله لن تكون نتيجته ذات قيمة عملية . . إنه يدور فى حلقة مغلقة . . وهذه الحلقة تتخبط فى دورانها وهى تعوق سير القافلة البشرية .

* * *

وإذا كان الوجودى ينشد اللذة . .

فإنه باتجاهاته تلك يحرم نفسه من أكمل وأقوى أنواع اللذات . . وهى اللذة الروحية .

* * *

هذه اللذة البالغة الحلاوة ، حتى إن الإسلام ينهى أتباعه عن الاسترسال فيها . إنها لذة الاستغراق فى الصفاء الوجدانى . . الذى أحسه الرجل الصوفى وهو يسرى فى كيانه ويجعل أيامه ولياليه لذة ناتجة عن فكرة موصولة بأسباب الأرض والسماء . فهو باتحاده فى الكون يشعر بكل ما فيه من جمال فيقول عن نفسه وإخوانه .

نحن فى لذة لو عرفها الملوك لحسدونا عليها .

* * *

والعقيدة الإسلامية تهدف إلى إسعاد البشر فى دنياهم قبل أخراهم وترشد كل إنسان إلى أن يأخذ بحظه من نصيب الدنيا وهى تجمع الناس وتجندهم فى كل حقل من حقول الإنتاج . وتدعو دائماً إلى العمل الجماعى وتجعل العمل قرين الإيمان . . ففى كل آيات القرآن لم يرد الإيمان خلواً من العمل . . إن إيماناً بغير عمل كشجرة بلا ثمر .

والعمل كلمة تعنى دفع العجلة دائماً إلى الأمام ولكن الوجودى حين يختار لنفسه العزلة عن حقول الإنتاج مستمتعاً بهواه . إنما يقاوم عجلة التقدم . وهو بذلك شر على نفسه وعلى الناس .

* * *

إن الوجودى عدو للعقيدة الدينية . فهو عدو لكل شىء . فالعقيدة تدعو إلى الوحدة العامة . من الجماد إلى النبات إلى الحيوان الأعجم – إلى الإنسان الناطق – .

إن الإنسان سيشعر بمسئوليته إزاء هذا كله . . . وعليه تجميع كل شىء كما تتجمع تروس الآلة لينشأ عنها دولاب

ضخم متكامل الأجزاء . . يؤدى الرسالة العظمى التى أرادها الله للناس وجعلهم مستخلفين فى الأرض وكلاء مسئولين عن كل ما فيها .

فالوجودى بوضعه ذاك عدو لله . . والذى يعادى الله . . إنما يعادى كل شىء حتى نفسه .

ويتشدق الوجودى بمعانى الحرية . .

إن العقيدة لا تستمد حريتها الضيقة من معنى أرضى محدود تافه . . إن العقيدة حين تدعو إلى الإيمان بالله إنما تضع نظماً شتى عادلة لكل شىء . . وبهذه النظم يسعد كل إنسان ويجد هناءه .

وما دام هذا الكون من صنع الله . . والخلائق به يهتدون . . فلن يكون هناك وجه للنزاع والتطاحن ، وفى ظل العقيدة يتساوى الجميع فى تحصيل الخير .

فالناس سواسية كأسنان المشط .

ولن يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . . أنه ارتباط ينشأ عنه السلام على الأرض . . ذلك السلام الذى يحاربه الوجودى حين تتعارض رغباته مع رغبات الآخرين الذين لا يعترف بهم ولا يقيم لهم ولا لمجتمعهم ولا لدينهم وزناً .

فالوجودية مبدأ خطر على الإنسانية وضد قضية السلام .

ونحن الآن فى بلادنا نواجه ألواناً شتى من المشكلات والعوائق ونريد أن تجمع الأمة على ما يسدد خطاها . . فمن الخطأ البين أن ندع أفكارنا تذهب بدداً فى مسارب ملتوية .

إننا فى مسيس الحاجة إلى كل فرد وإلى كل طاقة ولابد أن نواجه ذلك بعقيدة تجمع قوانا .

إن العقيدة وحدها هى التى تسعفنا بالقوة اللازمة لتوحيد الجهود فى كل حقل وكل ميدان .

وإذا كنا قد ألقينا الأضواء على الوجودية من وجهة نظر العقيدة الإسلامية . فإننا سنذهب فى الفصول التالية إلى تفنيد كل مذهب من مذاهبها على انفراد لنكشف عنه النقاب .